العائدون

رأيتهم كما كنت أراهم قديماً ، يجلسون منفردين في شمس الشتاء أمام مقهى المعلم صبحة ، يترشفون القهوة ويدخنون الطباق في القصبات الطويلة ويسعلون ويبصقون على الأرض . وقد انطفأت نفوسهم وخفتت حدة الكبرياء التي كانت تملؤهم وفل التحدي الذي كانت ترسله نظراتهم للناس في ازدراء واحتقار . واتجهت أبصارهم إلى تراب الأرض وكانت لا ترتضي السماء متجهاً لها .. تماماً تماماً ، كما كنت أراهم قديماً . ورأيته فيهم، قد عاد مثلهم ، إلى شمس الشتاء أمام المقهى يترشف القهوة ، وقد سكنت نفسه وخفتت حدة الكبرياء التي كانت تملؤه وفل التحدي الذي كانت ترسله نظراته للناس في ازدراء واحتقار واتجه بصره إلى تراب الأرض . يا للأقدار ! .. إن عجلة الزمن لتدور دورانها السريع الرتيب ، وإنها لتقلب الأوضاع ثم .. ثم لا تلبث أن تعيدها .. ثم تقلبها لتعيدها ثانية ! .. لقد رأيته فيهم وعرفته سريعاً ، وكنت أنوي أن أحييه ، ولكنه زاغ مني ، أعني من نظراتي، واتجه ببصره إلى .. إلى تراب الأرض .. ولكن ؟ .. أكان اتجاهه للأرض وهروبه من مواجهتي ينسيني إياه ؟ .. مطلقاً ، لقد عرفته سريعاً ، ومرت بخاطري كل أحداث قصته ، من بدئها حتى هذه اللحظة التي رأيته فيها .. إنها ليست قديمة إلى حد النسيان .. إنها قريبة لم يتعد عمرها السنة الرابعة .. أجل أربعة أعوام هي كل عمر قصته على التحقيق ، فقد كان ميلادها على بصري وسمعي وفي رعايتي .. إنني أذكر ذلك جيداً جيداً .. أذكر هذه الأمسية التي أتى فيها ذلك الفتى إلى منزلي يطلب مقابلتي ليخطب زكية خادمتنا الشابة ومعه أمها . وسمعت أم زكية وهي تقول لي : يا سيدي لقد جاءني هذا الشاب يخطب زكية ، وأنا كما تعرف يا سيدي أرملة جاهلة مسكينة لا عائل لي أو لبناتي اليتيمات، وقد قمت أنت يا سيدي برعاية زكية حتى نضجت في رعايتك ، وأريد منك اليوم أن تتم جميلك معنا فتتول

أمر هذا الزواج وتمحيصه ، وأبلغ الصديق ، فإن رأيته صالحاً مناسباً ووافق رأيي من فضلك فاعمل . والله لا يضيع أجر إحسانك ومروءتك لهذه اليتيمة » . وحين انتهت الأم من حديثها هذا ، بدأت أسأل الفتى عن اسمه وعمله وأسرته وحالته الاجتماعية .. إنه شاب في السادسة والعشرين من عمره تقريباً ، أسمر البشرة معروق الجسد له شارب صغير وشعر طويل لا تغطيه قلنسوة أو نحوها ، ويرتدي ثياباً إفرنجية ينبئ شكلها وحركاته وموقفها عن أنه حديث عهد بلبسها . وحين سألته عن عمله أجاب بأنه عامل ، واستوضحته أي عمل يعمله فقال خرّاط ميكانيكي . قلت فهذا عمل حسن في صناعة ناجحة مرفقة ، ولكن أين تعمل أفي مصانع الحكومة أم في مصانع الجيوش المحاربة ؟ قال باستعلاء : وتحدٍّ في مصانع الجيش البريطاني . وعرفت منه أن أجره في الشهر يتعدى الستّة من الجنيهات ، وهذا مبلغ لا بأس به يكفي حاجة منزل معتدل لأسرة صغيرة تتكون من زوجين كسيد هذا وزكية . . ثم أتممت استيضاحاتي كلها منه ، وكانت كل إجاباته مما يطمئن تقريباً . وكانت أم الفتاة تجيب معه في معظم إجاباته . وكانت زكية تحوم حولنا متعللة بقضاء بعض الحاجات لتسترق السمع ولتطمئن على نفسها ، فكنت ألمح في عينيها لمعة الفرح والرضى .. لكنني مع كل هذا ، كنت أرى في عيني سيد هذا ، شيئاً غريباً يكاد يكون مناقضاً لما يبديه أمامي من تأدب وخشية .. أقول كنت أرى هذا الشيء الغريب في عينيه حتى بعد أن استعلمت عن عمله وبعد أن سألت عنه في موطنه القريب منا . كنت في حالة تشبه عدم الرضى عن هذا الخاطب رغم تأكدي من صدقه في معظم ما أجابني عنه . لست أدري لماذا ؟ ولقد كاشفت زوجتي بشعوري هذا ، فأبدت موافقتها لي في هذا التشكك . ثم .. ثم عادت هذه الزوجة الطيبة فترددت وخالفتني وأخذت تلح عليّ في قبول هذا الزواج وإتمامه وترك هذا التشاؤم والتشكك ، بعد الذي رأته من إقبال الفتاة وسرورها وبعد الذي نمي إليها من أن الفتاة تميل إلى الشاب الخاطب وأنها تبادله عاطفة وحبّاً قديمين .. والذي آلان من تشاؤمي ، ولم يبدد من شكي شيئاً مع ذلك ، هو ميل أم الفتاة إلى إنهاء هذا الزواج ، ورضاؤها عنه . وكانت زوجتي الطيبة تقول لي : مالك متردّداً متشككاً ؟ فأجيبها بما في نفسي من قلق وحيرة وقلق ، منبعها جميعاً الشيء الغريب الذي كانت تنبئني به عينا الفتى ، ومن أن فتاة مسكينة

كركية خدمتنا هذه الحقبة الطويلة من الزمن بنزاهة وإخلاص حتى صارت منا كالابنة وصرنا منها كالأهل ، لا يجب أن نتساهل في أمر تزويجها هكذا سريعاً ولأول قادم ، بل يجب أن نتروّى وننتظر حتى يأتيها زوج مناسب معروف لنا أو لأمها من قديم ، ونعرف أهله ونشأته وسيرته ونعرف له عملاً ثابتاً دائماً بدل العمل الموقوت في مصانع موقوتة كمصانع الجيوش المحاربة . . وكنت أقول لها ، لزوجتي ، إن مجرّد مجيء أي شاب يشتغل في صناعة معروفة ناجحة بمصانع الجيش البريطاني ومرتبه يزيد عن ستة جنيهات وإنه يسكن في عطفة زنبقة بدرب المتحفية لا يكفي مطلقاً ضماناً لقبوله زوجاً . ليخيل إليّ يا زوجتي العزيزة الطيبة أنه فتى من هؤلاء الفتيان المتعطلين الذين يعمرون المقاهي البلدية ويسيرون في الطرقات يتسكعون في شمس الشتاء الدافئة أو ظل الصيف يتبادلون بذيء السباب والشتائم ويتحاورون الضحكات الغليظة النابية ، وأنه إنما يكون رزق هذا العمل بسبب ذلك الرواج الذي سببته الحرب والذي لا يلبث أن يزول بزوال الحرب وبعدها يعود الفتى إلى رفقته وإلى تسكعه وإلى مقهاه البلدي وإلى تبادل السباب البذيء مع رفاقه . .

ولكن زوجتي هذه الطيبة القلب ظلت بي تجادلني وتحاورني وتقنعني بأنه مهما يكن من أمر ، فمن سيتزوّج هذا الفتى ؟ أليست فتاة كركية يجعلها سيدة بيت وأم أولاد ؟ أغليسا هو وهي من بيئة متحدة في الفقر والجوع والشبع بل والطباع والعادات في الأغلب الأعم ؟

وكان آخر ما صنعته معي زوجتي في شأن هذه الزيجة ، أن دخلت عليّ حجرتي الخاصة ذات مساء ، وأخذتني من يدي بقوة وقادتني نحو غرفة الخدم ، وكانت زكية بداخلها وحدها ثم أوقفتني بعيداً بحيث لا ترانا زكية بينما نراها نحن ونسمعها بسهولة ، فماذا سمعت وماذا رأيت ؟ يا لعجبي ويا لدهشتي ! . . هذه زكية تبكي بحرقة ومرارة وتندب حظها السيء الذي جعلني أقف حائلاً بينها وبين أمنيتها العزيزة في الحياة والتي هي الزواج من سيد فالذات . . رأيتها بعيني وسمعتها بأذني تنتحب وتردد في ولولة حزينة مؤثرة : يا مصيبتي السوداء . . يا حظي النحس المنكود . . يا ربي ماذا صنعت من شرّ لسيدي حتى يحول بيني وبين راحتي وسعادتي . أجزاء إخلاصي له ولأولاده كل هذا الزمن يكون تعذيبي وتضييع حظي يا رب . . يا رب خذني إليك وأنه حياتي بدل هذا التعذيب والشقاء . . » وكلاماً آخر كثيراً غير ذلك

ثم تزيد فتنظم وجهها وتشد شعرها ... صمت متخاذلاً كئيباً وصوت زوجتي الطيبة يرن في أذني : أسمعت أرأيت ؟ أفبعد كل هذا لا تزال مصراً على انتقاء زوج آخر لها أصلح من هذا الزوج ؟

* * *

وتم الزواج .. أعني زواج زكية من عبد الحميد .. ومر عام للزواج وعام .. وتبع العامين عام ثالث ثم — ثم ماذا ؟ أكان زواجاً سعيداً موفقاً كما أملت زكية ، وكما تمنت أمها ، وكما كانت ترجوه زوجتي ؟! .. الواقع أن الزواج ظل سعيداً عدة أسابيع بعد الزفاف أو لعلها بضعة شهور ، ثم أدركه شيء من الملل .. أعني ملل الزوج وضيقه بحياة الاستقرار والأمن والدعة والركون إلى منزل محدود تديره فتاة حانية قانعة مثل زكية ، وراوده ميل وحنين إلى حياته القديمة والسهر مع رفقته القدامى الذين انتزعته منهم حياة الزوجية ، والذين أنعشهم رواج الحرب وتيسير العمل المستمر والكسب المتصل وزوال البطالة والتعطل والكساد .. فعاد إليهم ولقوه فرحين بعودته .. ومرة أن رآهم ورأى المقهى في نشاط عجيب وانتعاش غريب وسمر لذيذ ونور غامر ودفء لطيف .. إنه تغيير شامل لحال القديمة ، فهذه الزحمة وهذه الحركة وهذا السرور ، ثم هؤلاء الرفقاء قد تغيرت جلستهم وتغيرت هيئاتهم وتبدلت مشروباتهم التي لم تكن قديماً تتعدى تلك القهوة أو قصبة الطباق الطويلة فاستبدلت تلك القهوة بأكواب الشاي والسحلب والبندق بل وبالخمر أيضاً ، واختفت قصبة الطباق الطويلة وحلت محلها النارجيلة الأنيقة . وراعته هذه التغييرات وتلك الانقلابات ، واستهوته ، وصادفت من نفسه غراماً وهوى فأقبل على السهر واندمج مع الرفاق وجاراهم في الانفاق والشراب والسمر وتردد معهم على دور السينما . وهذه السينما هي الأخرى قد جدت في حياتهم ولم تكن معروفة قديمة فيهم وإنما شجعهم على ارتيادها وأغراهم بها هذا الرواج الجديد الذي سببه العمل المستمر والكسب المنتظم .. وزادوا على السينما ، لوناً آخر من ألوان المتاع هو بالضرورة لازم وهام لمن يسهر في المقهى ويشرب الخمر ويرى في دور السينما الرقص الخليع والأجساد الرخيصة العارية ، ويستمع إلى الأغاني الرقيعة ويشاهد المغامرات المبتذلة الدنيئة .. هذا اللون هو النساء وعشق النساء ومواعدتهن

وصحبتهن إلى دور السينما والسير معهن في الطرقات والأزقة المظلمة المختلطة بالمقاهي . فاندمج الزوج تماماً في هذه الحياة وأحبها وكلف بها وصار ينظر إلى البيت ، أعني زوجته وأولاده نظرة ضيق وكره . وصار مرتبه لا يكفي لحياة هذا البيت ، ولهذه الحياة الساهرة اللاهية العربدة ، وكثرت النفقات وزادت عن المرتب ، واضطر الزوج إلى الاستدانة والقرض ، والاستدانة لا تتم إلا برهن ، ومن أين له ما يرهنه ليحصل على المال ان لم يكن هذا الذي يرهنه قرط زكية أو خاتمها أو عقدها أو بعضاً من نحاسها أو أثاثها أو حتى ثيابها وثيابه .. وقل على ذلك وما يُرهَن لا يُرد . ولدى الراهن معذور في عدم رد الرهينة فهو يعطيه المال برهينته على عدة فتمضي العدة وصاحبها لا يرد المال ليأخذ الرهينة ولدى ينتظر وينتظر ثم يتصرف في هذه بالبيع أو نحوه ..

وتغيرت أخلاق الفتى ومعاملاته وأحاديثه تبعاً لكل هذا الذي جد في حياته فتحامل على زوجته وعلى أولاده وضاق بها وبهم ، فالحديث الحاد المرتفع ، والسباب القاسي ، والضرب الموجع ، كل هذه صارت لازمات مكملة لشخصيته .

وكانت زكية تزورنا كثيراً وتشكو إلينا وتحدثنا بكل هذا وهي تتفطر حزناً وحسرة وكنت أستمع لشكواها وأتألم لها وأعيرها اهتماماً كبيراً . وأنظر إلى زوجتي نظرة تعرف معناها جيداً . إنها نظرة لوم وعتب قاسية . فقد كنت أرجو لزكية زوجاً يكافئها إخلاصاً وحباً وعطفاً واهتماماً بشؤون البيت والأسرة ، وكنت سبيلي لرد هذا الزوج المستهتر لولا . لولا القضاء المقدور والقدر المسطور ، كما كانت زوجتي تقول .

تلك كانت أعوام هذا الزواج الثلاثة ، وذلك هو وصفها الدقيق الصادق لا تزيد فيه ولا مبالغة ، بل قد يكون الوصف مقتضباً ناقصاً كثيراً جداً عن نفس الصورة الحقيقية . وما أدري ما الذي يشغلني ويهمني جداً ويرغمني ارغاماً على متابعة أخبار هذا الزواج وأحداثه ، مع اعتقادي الجازم بأنه واحد من عشرات ألوف الزيجات التي تمت بسبب هذا الرواج وذلك الانتعاش اللذين أوجدتهما الحرب ، لا أكثر ولا أقل . لست أدري ما سبب ذلك الاهتمام مني ، وما أدري ، بالضبط إن كان السبب هو تلقي على مستقبل فتاة كزكية خدمتنا باخلاص وأمانة توجبان الوفاء لها ؟ أم هو القلق على مستقبل أطفالها

من جراء سلوك هذا الزوج المستهتر الأحمق ؟ أم هو القلق على مستقبل عشرات الألوف من هاتيك الزوجات أمثال زكية اللاتي كان زواج الحرب الموقوت سبب تزويجهن من عشرات الألوف من الأزواج المستهترين الحمقى أمثال سيد ؟ أم هو القلق على مستقبل مئات الألوف من أبناء هاتيك الزوجات وأولئك الأزواج ، الذين سيكونون جيلاً آخر حديثاً والذين سيصيرون ، حتماً كآبائهم عاطلين لا يجدون عملاً يقتاتون منه ولا يهتم بهم أحد ولا مجتمع ولا حكومات . والذين سيظلون في عطلتهم ينتظرون حرباً جديدة ليعيدوا سيرة آبائهم فيتزوجون ويطلقون ألوف الألوف و .. و .. ؟ ؟ ربما كان كل ذلك جميعه هو مبعث قلقي وتفكيري وشغلي وتتبعي لأخبار هذا الزواج وأحداثه وأبنائه ! ..

وذات مساء ، بعد مرور هذه الأعوام الثلاثة ، وجدت زكية تدخل على حجرتي دامعة العين حزينة القلب . وسألتها عن خطبها فما استطاعت أن تغالب البكاء إلا بعد فترة غير قصيرة . قالت لي : لقد طلقني الليلة ياسيدي . طلقني الآن وطردني بأولاده الثلاثة بعد أن أتى على كل ما أملك وأضاعه هاذا . ماذا أصنع يا سيدي ؟ لو كنت وحيدة لهان أمري ، لكننا أربعة أنفس نحتاج الطعام والكساء والمأوى الأمين ، وأمي مسكينة لا تكاد تقوى على كفاية نفسها وقوتها ! .

ولم يكن الظرف مما يحتمل فيه اللوم ، فعمدت الى مواساتها بكلمات طيبة ، ووعدتها بأن أكلف أحد المحامين بشكوى هذا الزوج الفاجر المتمرد وإلزامه بنفقتها هي وأولادها ، واطمأنت إليها بعض الشيء وخرجت من عندي وقد خفت حدة الألم في نفسها . ولم أكذبها الوعد ، فقد كلفت أحد المحامين المعروفين برفع دعوى النفقة وسارت الدعوى في طريقها الطبيعي وحكم لها بنفقة شهرية قيمتها ثلاثمائة قرش . وسرني وسرها هذا الحكم السريع المعتدل ، ورحنا نتأهب ونعد العدة للتنفيذ وحجز قيمة النفقة من راتبه الشهري . لكن ..

لم يكن تمرد سيد على زكية ، وإيذاؤها ، والاستيلاء على متاعها وإضاعته ، ثم طردها وتطليقها ، هو كل ما كنت أتوقعه وأخشاه من هذه الزيجة قبل إبرامها ، كما أخبرت به زوجتي الطيبة في حينه . فقد تم ووقع بالفعل أقصى ما كنت أتوقعه ! .. فقد جاءتني زكية بعد شهرين من تاريخ صدور حكم النفقة ، محتقنة الوجه واجفة القلب ! . ماذا يا زكية ؟ هل من جديد ؟ وأجابت بذلة وحسرة بالغتين : لقد رفت .. رفت الفاجر وطرد من عمله في المستشفى عنهم جزاء تمرده وإساءته إلي .. لقد استغنوا عنه ووفروه مع عديدين من أمثاله المتمردين . لكني ياسيدي أرى أن هذا الرفت والطرد ليسا عقاباً له أو مصيبة أصابته .. لكنها مصيبة لي أنا ولأولادي بالذات .. من أين سآخذ النفقة التي قدرتموها

الحكة ؟ من أين لي غذاء هؤلاء الصغار ؟ ! . . وبلغ بي الألم حداً كبيراً فضغطت أسناني بعضها ببعض ولم أستطع الكلام ، ولكن زوجتي اللبقة قالت على الفور وفي حماسة واندفاع ، هذا لايهم .. معنا حكم ننفذه فإن عجز عن الدفع حبسناه وأدخلناه السجن ، وفي السجن مذلة له وانتقام كبير . وابتسمت أنا ابتسامة باهتة حزينة لهذه الزوجة الطيبة البلهاء ثم قلت موجهاً الحديث لصاحبة الأمر : إسمعي يا زكية ، لا أمل يا ابنتي في مثل هذا الرجل ولا فائدة وراء الحكم الذي تحتفظين به ، ولا في السجن الذي ستبدله ويبيه . إذ ماذا ستأخذين أو تستفيدين من سجنه وإذلاله ؟ اعتمدي يا إبنتي على الله وثقي بقدرة الله ورحمته. قالت : والله يا سيدي ما أملت في خير مطلقاً يصيبني منه وإني لعالمة بنهايته هذه من يوم أن حدثتني ونصحتني قبل الزواج فلم أستمع ولم أتصح .. أذكر تماماً قولك لي إنها فورة الحرب ، وكثرة الأعمال التي تسببها الحرب ، وما تلبث الحرب أن تزول فيزول بزوالها كل ما سببته من فورة ومن نشاط ومن عمل ويسرح ألوف هؤلاء العاملين ويعودون الى حياة التبطل وقد خلفوا وراءهم جيوشاً من الزوجات والأطفال يبحثون عن القوت والكساء . أجل أذكر كل ذلك .. ولكنه عمى القلب وضلال العاطفة أقصياني عن الطريق السوي . لكن الآن يا سيدي ! قلت : ماذا ؟ قالت : أن أطرد ذكره من رأسي وأفكر جدياً في أمري . قلت : فذلك هو الواجب . قالت : أريدك أن تأخذ بيدي . قلت : فأنا لن أتقاعس عنك . قالت : يمكنك يا سيدي بحكم مركزك أن تلحقني بإحدى المستشفيات (ممرجية) في مستشفى قصر العيني أو مستشفى الملك أو مستشفى الأطفال . أي مستشفى » . .

وأعجبني طماعة الفتاة ، ووجدت من نفسي قدرة على مساعدتها على تيسير عمل لها ، ففعلت . والتحقت الفتاة بمستشفى قصر العيني وصارت تسعى لرعاية أولادها الصغار ليكبروا ، وليصيروا كأبيهم عمالاً في مصانع الجيوش المحاربة في الحرب المقبلة ، ثم في فترة عملهم وزواجهم . يتزوجون وينسلون ، ثم يعودون بعد انتهاء الحرب الى حياة التبطل والتسكع لا يهتم بأمرهم أحد ولا مجتمع ولا حكومة .

ذكرت هذه القصة الأليمة حين رأيتهم ، ورأيته فيهم ، يجلسون في شمس الشتاء الدافئة أمام مقهى المعلم هيبعه ، يترشفون القهوة ، ويدخنون الطباق في القصبة الطويلة ويسعلون ويبصقون على الأرض ، وقد اطمأنت نفوسهم ، وخفت حدة الكبرياء التي كانت تعلوهم وقل التحدي الذي كانت ترسله نظراتهم للناس في ازدراء واحتقار ، واتجهت أبصارهم الى تراب الأرض وكانت لا ترضى السماء متجهاً لها . تماماً . تماماً كما كنت أراهم قديماً .. قبل الحرب .

محمد طلعت رزق